د/ عبد الحكيم عبد الحق سيف الدين (*)

عهد المتوكل على الله العباسى

بين الحقيقة التاريخية وظلم المؤرخين

إذا ما نظرنا إلى التاريخ العالمى نجد أنه لا يعبر فى تحقيبه عن شعوب العالم، وأممه، إذ أن الفواصل التاريخية التى تقسم التاريخ إلى مراحل، وضعت نسبة إلى أحداث القارة الأوروبية.

فالتاريخ وفق هذا التقسيم ينقسم إلى ثلاث مراحل رئيسية، هى: التاريخ القديم، والتاريخ الوسيط، والتاريخ الحديث والمعاصر.

ولو بحثنا فى حيثيات هذا التقسيم، نجد أن التاريخ القديم يبدأ بمعرفة الإنسان الكتابة، وينتهى بسقوط روما عاصمة الإمبراطورية الرومانية تحت وطأة الجرمان، كما وضع تاريخ بناء القسطنطينية عاصمة الدولة البيزنطية بداية للتاريخ الوسيط، وسقوطها نهاية لهذه الحقبة، ويبدأ التاريخ الحديث بعهد النهضة الأوروبية، وينتهى بنشوب الحرب العالمية الأولى، وكل هذه الأحداث دارت فى القارة الأوروبية، فأين مساحة الأحداث لبقية العالم، الذين شاءوا أم أبوا وضعوا ضمن هذا التقسم.

وما يزيد الأمر سوءَ أن التاريخ الإسلامى وفق هذا التقسيم وضع ضمن حقبة العصور الوسطى، التى لها سمات معينة فى تصورات الناس، فهى عصور الظلام والتأخر والجهل وسيطرة الكنيسة بتعاليمها البالية على الحياة الدينية والزمنية فى أوروبا.

وإذا ما خضنا فى التاريخ الإسلامى، وأمعنا النظر فى تقسيماته، نجد أن ثمة حاجة لإعادة النظر فى هذا التقسيم، إذ هو بداية يعتمد التقسيم الأوروبى، فهو ضمن حقبة العصور الوسطى، كما أنه يوضع ضمن

(*) أستاذ مساعد بقسم التاريخ – كلية الآداب – جامعة تعز

مرحلة زمنية انقضت، وكأنه أصبح من تركة الماضى، وهذا مخالف للواقع، فنحن ما زلنا فى دول تدين بالإسلام، وتعتمده فى إدارة شئونها، ونعيش فى مجتمعات تدين بالإسلام وتحيا به وله.

وإذا ما أوغلنا أكثر فى التقسيمات لحقب التاريخ الإسلامى نجد أن الأخطاء تتكرر، - ولا عجب من هذا لأن صياغة التاريخ الإسلامى فى العصر الحديث قد بدأت على أيدى المستشرقين الذين كانت لهم أغراضهم من هذه الصياغة، فالعصر العباسى يقسم إلى حقبتين رئيسيتين، عصر عباسى أول تميز بالقوة والازدهار، وآخر وسم بالضعف والتراجع والإضمحلال.

وهو تقسيم يعتمد على نظرة جزئية أحادية للتاريخ، إذ اعتمد المؤرخون أصحاب هذه النظرة، جانباً واحداً من جوانب التاريخ المتعددة للحكم علي عصور التاريخ العباسى، هو الجانب السياسى، فاعتمدوا ما حدث من ضعف سياسى وتفكك بعض أوصال الدولة العباسية وضعف بعض خلفاء المرحلة المتأخرة، وفقدانهم السيطرة على مقاليد الأمور، وما صاحب ذلك من مظاهر، اعتمدوها أساساً لتقسيم الحكم العباسى إلى عصرين متميزين، عصر عباسى أول يتسم بالقوة، وعصر عباسى ثانى يتصف بالضعف والضمور.

فأغفلت هذه النظرة جوانب أخرى من التاريخ لا تقل أهمية عن الجوانب السياسية إن لم تفقها، أعنى بذلك الجوانب الحضارية والعلمية، خصوصاً وأنا نعلم أنّ من غايات التاريخ السامية، رصد تطور الحضارة الإنسانية، ومدى إسهام الشعوب والأمم فيها، فالمرحلة المتأخرة من عمر الدولة العباسية، وإن عانت من الضعف السياسى، وانفرط عقدها، إلاّ أنه لا يستطيع أحدٌ أن ينكر أن جل العلوم الدينية والطبيعية، وإن كان بعضها قد نشأ فى العصر العباسى الأول، لم تنم وتترعرع، ولم تزدهر وتتألق، إلا فى العصر العباسى الثانى، فكان بمثابة الرحم الذى تخلّقت فيه الحضارة الإسلامية، وأن ذلك الضعف السياسى أتاح تنوع المنتج الحضارى فى شكله، وإن كان متوحداً فى جوهره، فظهرت ثلاثة مراكز حضارية فى بغداد القاهرة، وقرطبة، أثرت الحضارة الإسلامية.

ومع ذلك، وإن وافقنا هؤلاء المؤرخين فى اعتماد المعيار السياسى أساساً للتمييز بين مرحلتين مختلفتين من عمر الدولة العباسية، فإننا نأخذ عليه أن الحدود الفاصلة بين هاتين المرحلتين (العصرين) فيها بعض التجاوز.

إذ اتخذت جل الدراسات التى عرضت للتاريخ العباسى[1]، من سنة (٢٣٢هـ/ ٨٤٧م)، نهاية للعصر العباسى الأول وبداية للعصر العباسى الثانى، وهى المرحلة الفاصلة بين عهدى الواثق بالله، والمتوكل على الله، وتبعاً

لهذه النظرة، وذلك التقسيم، صُنِّف عهد الخليفة المتوكل على الله (٢٣٢-٢٤٧هـ / ٨٤٧ - ٨٦١م) على أنه بداية عصر الضعف والانحطاط.

وقد كان لهذا التصنيف أثره الواضح فى رسم صورة باهتة - خلافاً للواقع - لهذا الخليفة، ولعهده، لدرجة أن بعض هذه الدراسات تكاد لا تشير إلى عهد هذا الخليفة، فالانطباع الأول الذى يخرج به المطالع لمعظم الدراسات المحدثة عن التاريخ العباسى، هو أن المتوكل خليفة ضعيف، لا له حول ولا قوة، وأنه كان ألعوبة بأيدى قوّاد جيشه من الأتراك، خلافاً لما يخرج به الباحث المدقق المنصف من خلال المصادر المعاصرة والقريبة من عهد المتوكل، إذ يجد الباحث نفسه إزاء واحد من خلفاء بنى العباس الأقوياء، وعهده من أكثر العهود إصلاحاً.

الإصلاحات العامة:

وإذا ما انفككنا من أسر هذه الدراسات التى اعتمدت قوالب جاهزة لحقب التاريخ الإسلامى، وبالارتداد صوب المرحلة التى تخلقت فيها أحداث التاريخ العباسى، وحاولنا الإطلاع عليها من خلال المصادر الأصلية، والمنابع الصافية للتاريخ الإسلامى، نجد أنفسنا أمام خليفة لا يقل عن أسلافه من الخلفاء العباسيين إن لم يفق بعضهم، وهو ما أكده أحد معاصريه من العلماء(٢)، حيث قال: «الخلفاء ثلاثة أبو بكر الصديق قاتل أهل الردة، وعمر بن عبد العزيز رد مظالم بنى أمية، والمتوكل محا البدع وأظهر السنن»(٣)، وهذا لا يعنى بالتأكيد انتقاصاً من بقية الخلفاء قبل وبعد المتوكل، وإنما إشارة إلى الإنجازات الكبيرة لهؤلاء الخلفاء، وقال آخر: «لما استخلف المتوكل على الله، نظر فى إصلاح العامة، والتفت إلى المظالم والمسجونين، والجبر لقلوبهم»(٤)، بل ويشير بعض المؤرخين إلى إنه كان أفضل ممن سبقه من الخلفاء حيث يقول: «وانتهج سياسة تأليف الناس بعد أن قلاهم وأعنتهم الخلفاء من قبله، فقال المتوكل معبراً عن ذلك: «إن الخلفاء كانت تتعصب على الناس ليطيعوهم، وأنا ألين لهم ليحبونى ويطيعونى»(٥)، فقرب التجار والفلاحين والصناع وأغدق عليهم الأموال، وأراد إصلاح الأرض وإجراء الأقنية، وأجّل أخذ الخراج المفروض على المزروعات إلى ما بعد نضج الثمر(٦).

وهو ليس خليفة ضعيفاً كما يصوره بعض المؤرخين، إذ تمكن طوال عهده من تصويب الأخطاء السياسية والانحرافات الفكرية والمخالفات الإدارية، التى غرقت فيها الدولة، أو كادت، وأصابت بالخلل أجهزتها فى عهد أسلافه، وهو شىء لا يتصدى له إلاّ خليفة قوى.

مواجهة النفوذ التركى:

جاء المتوكل إلى الخلافة، وقد استبدت بها القيادات التركية التى نمت وترعرعت فى عهد المعتصم، ثم سيطرت وتحكمت فى عهد الواثق، فاستبدت بالسلطة واستأثرت بالمال، وزاد نفوذها فى البلاط العباسى، وكان هؤلاء يستجلبون أبناء جلدتهم، لتدعيم مراكزهم السياسية والعسكرية، فحاول المتوكل الحد من هذه السيطرة، والكبح من ذلك النفوذ والاستبداد لهذه القيادات التركية المتسلطة، فجرد بعضهم من مراكزهم السياسية والعسكرية، وحاسبهم فيما حازوه من أموال بطرائق غير شرعية فصادر بعضها(٧)، بل إنه عزم على اتخاذ عاصمة جديدة للدولة تكون بعيدة عن سامراء(٨)، والعراق، حيث تركز العناصر التركية، فوقع اختياره على دمشق وسار إليها سنة (٢٤٤هـ / ٨٥٨م)، إلا أنه كما تقول الروايات، استثقل ماءها، فعاد إلى سامراء بعد شهرين من المقام بدمشق(٩) وقد أوغرت هذه الإجراءات صدور القادة الترك ضد المتوكل وظلوا يتربصون به حتى قتلوه(١٠)، ثم استبدوا بعد ذلك بالخلافة وسيطروا على الخلفاء، فأصبح الخلفاء بعد ذلك يسيرون حسب إرادتهم، ولذلك فبموت المتوكل ابتدأ نفوذ الأتراك واستمر، ومعه ابتداء عصر الضعف السياسى للدولة العباسية، المعروف بالعصر العباسى الثانى(١١).

وربما أغرى تدخل القيادات التركية فى تولية الخليفة المتوكل على الله، بعد أن ترك أخوه الواثق الأمر دون أن يعهد إلى خليفة بعينه، ثم قَتْلُ المتوكل بعد ذلك بأيديهم، ربما أغرى ذلك بعض المؤرخين(١٢)، بتصور أن المتوكل كان خليفة ضعيفاً، جاء بأيدى الأتراك ثم ذهب على أيديهم، إلا أن ثمة سؤال يستوقف الباحث المدقق المنصف، ما الذى حدث على مدى خمسة عشر عاماً، بين تولية المتوكل (٢٣٢هـ/ ٨٤٧م)، وقتله سنة (٢٤٧هـ / ٨٦١م)؟ ألم يجرِّد هذا الخليفة هؤلاء الأتراك وغيرهم من المتسلطين المسيئين استخدام السلطة، من سلطاتهم ونفوذهم؟ ألم يحاسبهم فيما انتهبوا من أموال الدولة، وفيما اغتصبوه من أموال الناس؟ ثم ألم يكن ذلك سبباً فى حقدهم عليه وتخلصهم منه

إعادة التوازن فى العلاقة بأهل الذمة:

كما أعاد المتوكل على الله التوزان المختل فى علاقة أهل الذمة بالمسلمين، بعد أن أفرط الخلفاء قبله فى التسامح مع أهل الذمة على نحو من الغفلة، ألحق الضرر بالمسلمين، وتجاوز الحدود التى وضعها الله للتعامل معهم، حتى استحوذوا على الوظائف المالية والإدارية فى الدولة، وتحكموا فى المسلمين وساموهم ألوان العسف.

فتدخل العلماء لدى المنصور لمنع ظلم موظفيه من أهل الذمة للناس(١٣)، وقويت شوكتهم أيام المهدى، فأنكر عليه العلماء تسليمه الأمانة التى خصه الله بها لأهل الذمة دون المسلمين(١٤)، وتظلم أهل مصر لدى المأمون لما قدم مصر، ممن استخدم عليهم من النصارى(١٥)، وعندما ولى المتوكل الخلافة كان قد استفحل خطر موظفى الدولة من أهل الذمة، وأخذوا يغصبون الناس ضياعهم ودورهم، فلامه العلماء فى تركهم يعبثون بالمسلمين، وأفتوه بعدم جواز استعمال أهل الذمة فى أعمال الدولة وتقديمهم على المسلمين(١٦)، فضلاً عن أنه اكتشف، غشهم للمسلمين، ونصحهم لأعدائهم(١٧)، ومحاولة الإيقاع بين الخليفة وكبار معاونيه، فقد دخل سلمة بن سعيد النصرانى(١٨)، على المتوكل، وكان يأنس به، فقال: «يا أمير المؤمنين أنت فى الصحارى والصيد، وخلفك معادن الذهب والفضة ومن يشرب فى آنية الذهب والفضة ويملؤها ذهباً عوضاً عن الفاكهة»(١٩)، ثم لما عرف المتوكل، حقيقة الأمر، أمر بعزل أهل الذمة من وظائف الدولة(٢٠)، ونهاهم عن التشبه بالمسلمين فى ملبسهم ومركبهم(٢١)، مسترشداً فى ذلك بتوجيهات العلماء(٢٢).

غير أن هذه الإجراءات التى اتخذها المتوكل ضد أهل الذمة لم تصل إلى حد الاضطهاد، كما رأى بعض المستشرقين(٢٣)، إذ أن ما فعله هو تجريدهم من المكاسب غير الشرعية التى حازوها، فى ظل تفريط بعض الخلفاء، وعدم التزامهم بحكم الله تعالى فيهم، إذ أراد لهم الصغار حيث تكبروا على دينه ورسوله، وحيث نهى عن الاستعانة بهم فى كثير من الآيات، قال تعالى: «يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبالاً ودوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواهم وما تخفى صدورهم أكبر»(٢٤)، كما أنها لم تمنع الخليفة من الوفاء بالتزام الدولة إزاءهم، بل وإعفائهم من بعض الالتزامات المفروضة عليهم لدى عجزهم عن الوفاء بها، فانقص عن يهود نابلس(٢٥)، دينارين من الخراج عندما شكوا إليه ضعفهم وعجزهم عن أدائه(٢٦).

إنها فتنة القول بخلق القرآن:

لعل أهم عمل قام به المتوكل أنه وضع حداً للانحرافات الفكرية التى أغرقت المسلمين فى بحر من الجدل والحيرة، وكادت تعصف بالمجتمع، وتأتى على بنيانه من القواعد، فأوقف فتنة القول بخلق القرآن، وتتبع مروجيها من المعتزلة بعد أن جرَّدهم من السلطات الواسعة التى تمتعوا بها فى عهود أسلافه من لدن المأمون وحتى الواثق(٢٧)، وواجه سائر البدع التى ظهرت فى عصره(٢٨).

وفى المقابل مال إلى العلماء وقربهم إليه، وألحَّ على من أبى منهم لإتيانه، فالتمس أحمد بن حنبل(٢٩)، واستجلب ذا النون المصرى(٣٠).

وقد كانت هذه الإجراءات الإصلاحية التى قام بها المتوكل موضع إعجاب وتقدير العلماء والشعراء والمؤرخين، فقال أحمد بن حنبل: «كان الناس فى خوض من الباطل واختلاف شديد يغتمسون فيه، حتى أفضت الخلافة إلى أمير المؤمنين – يعنى المتوكل – فنفى الله به كل بدعة، وانجلى عن الناس ما كانوا فيه من الذل وضيق المحابس، ووقع ذلك من المسلمين موقعاً عظيماً»(٣١).

وعبرَّ عن ذلك أيضاً على بن إسماعيل(٣٢)، حيث قال: «أطفأ المتوكل نيران البدعة، وأوقد مصابيح السنة»(٣٣)، وهو تعبير عن ارتياح العلماء ورضاهم عن عهد المتوكل، إذ كان رأيهم هو المعيار الذى تقاس عليه المراحل التاريخية استقامة وسقوطاً قوة وضعفاً، فهم لا يحابون ولا يداهنون، ولا يخافون فى الله لومة لائم، وأثنى عليه الشعراء لإنهائه فتنة القول بخلق القرآن فقال البحترى(٣٤):

ردوت الدين فذا بعد أن قد أراه فرقتين تخاصمان
قصمت الظالمين بكل أرض فأضحى الظلم مجهول المكان(٣٥)

وأكد ذلك المؤرخون سواء المعاصرون أم المتأخرون، فعدوا عهده امتداد لعصر القوة والازدهار، فقال اليعقوبى(٣٦): «نهى المتوكل الناس عن الكلام فى القرآن، وأطلق من كان فى السجون من أهل البلدان، ومن أخذ فى خلافة الواثق»، وقال خليفة بن خياط(٣٧): استخلف المتوكل فأظهر السنة وتكلم بها فى مجلسه، وكتب إلى الآفاق برفع المحنة، وبسط السنة، ونصر أهلها»(٣٨)، وأكد ذلك المؤرخون المتأخرون فقال ابن الجوزى(٣٩): «ولى المتوكل فأظهر الله به السنة وكشف تلك الغمة فشكره الناس على ما فعل» وزاد على ذلك الذهبى(٤٠)، فقال: «فى سنة (٢٣٤هـ / ٨٤٩م)، أظهر المتوكل السنة، وزجر عن القول بخلق القرآن، واستقدم المحدثين».

وعلى مستوى العلاقات الخارجية، استعادت الدولة العباسية فى عهد المتوكل هيبتها، وقوى مركزها فى مقابل القوى المحيطة بها، فأعاد المتوكل تنشيط الجهاد بعد أن توقف تماماً فى عهد الواثق(٤١) فافتتح مدينة بارة(٤٢)، فى المغرب فى مستهل خلافته(٤٣)، وأخضع إقليم البُجة(٤٤)، سنة (٢٤١هـ/ ٨٥٥م)(٤٥)، وانتصر على الروم سنة (٢٤٦هـ / ٨٦٠م)(٤٦)، وبلغ من اهتمام المتوكل بالجهاد أن حدَّث الأسطول البحرى الإسلامى، فزاد فى عدد سفنه وشحنها بالجنود(٤٧)، وحصَّن العواصم(٤٨)، والثغور(٤٩).

معيار التفكك السياسى:

وإذا كان البعض قد اتخذ من بداية التفكك السياسى مبرراً للتقسيم إلى

عصرين متميزين، عصر قوة، اتسمت فيه الدولة بالتماسك، وعصر ضعف بدأت أوصال الدولة تتفكك، حتى أفضى إلى انفراط عقدها، وتناثر الدويلات المستقلة هنا وهناك، فإن هذا لم يحدث ابتداءً من عهد المتوكل بل بدأ مع ظهور الدولة العباسية، وفى عصر الخلفاء الأوائل الذين وصفوا بالقوة، ووصف عصرهم بالعصر الذهبى للدولة العباسية، فالأمويون استقلوا بالأندلس سنة (١٣٨هـ/ ٧٥٥م)، فى عهد المنصور، وبنو مدرار استقلوا فى سجلماسة بالمغرب الأقصى سنة (١٤٠هـ/ ٧٥٧م)، أيضاً فى عهد المنصور، وفى خلافة المهدى استقل الخوارج الأباضية بالمغرب الأوسط (١٦٠هـ/ ٧٧٧م)، وأسسوا الدولة الرستمية(٥٠)، وأسس الشيعة الأدارسة لهم دولة فى المغرب الأقصى ابتداءً من سنة (١٧٢ - ٣٦٤هـ / ٧٨٩ - ٩٧٥م)، فى خلافة الرشيد(٥١)، ومثلهم الأغالبة، (١٨٤ - ٢٩٦هـ/ ٨٠٠ - ٩٠٩م)(٥٢)، وهكذا فإن حركات الاستقلال عن الدولة العباسية قد بدأت مع ظهور الدولة، ولم تبدأ فى عهد المتوكل حتى نجعل من عهده بداية لمرحلة الضعف وتفكك أوصال الدولة.

وإذا كان اغتيال الخليفة المتوكل من قبل بعض أعوانه بمساندة بعض أفراد أسرته يعد مؤشراً على ضعف الخليفة والخلافة، فإن مثل هذا الأمر قد حدث قبل عهد المتوكل على الله، وإلاّ فماذا نسمى ما حدث للخليفة عمر بن الخطاب، الخليفة الثانى، عندما قتل فى المدينة، وبعد ذلك ما حدث لعثمان ابن عفان، وما استتبع ذلك من قتل للخليفة على بن أبى طالب، وفى العصر الأموى قتل الوليد بن يزيد على يد ابن عمه يزيد بن الوليد، بل إن العصر العباسى الأول شهد هو الآخر قتل للخليفة الأمين على يد أخيه المأمون، وهكذا لو كان قتل الخليفة معيار لقوة أو ضعف الدولة أين سنضع عهود هؤلاء الخلفاء الذين ينتمون إلى عصور الخلفاء الراشدين، والأمويين، والعصر العباسى الأول، عصور القوة والازدهار؟.

ثم إن امتداد خلافة المتوكل على مدى خمسة عشرة عاماً، ما كان له أن يحدث لو أن فى الخليفة شيئاً من الضعف.

ثم لنا أن نتساءل، إذا كانت هذه صفات المتؤكل، وذلك نهجه وسياسته، وتلك مجريات الأحداث فى عهده، وذلك رأى معاصريه، والمؤرخين بعد ذلك فيه، فلماذا يوضع عهده ضمن العصر العباسى الثانى الذى وسم بالضعف؟ ثم من الذى وضع هذا التقيم وتلك الحدود الفاصلة بين عصور التاريخ، ومعايير تقسيم الحكم العباسى إلى عصرين؟ أليس بشراً يصيب ويخطئ؟ وهل هذه التقسيمات مقدمة بحيث يُحظر على الباحث الاقتراب منها والتعاطى معها، واستقراء مبرراتها؟ ثم لماذا نلزم أنفسنا بهذه التقسيمات ما دامت مبرراتها غير مقنعة؟ وغير ذلك من الأسئلة التى تجول فى ذهن الباحث لهذه

المرحلة من التاريخ الإسلامى، وعليه فقد يسمح لنا العرض السابق لتحديد نهاية العصر العباسى الأول بتجاوز الفترة الزمنية التى اصطُلح على أنها نهاية للعصر العباسي الأول وهى سنة (٢٣٢هـ/ ٨٤٧م)، إلى الدخول فى عهد المتوكل، وعده امتداداً للعصر العباسى الأول، عصر قوة الخلفاء والدولة، وعليه فسنة (٢٤٧هـ / ٨٦١م) هى الحد والتاريخ الفاصل بين العصرين العباسيين الأول والثانى.

النتائج والتوصيات:

- إعادة النظر فى التحقيب الحالى للتاريخ العالمى.
- إعادة تحقيب التاريخ الإسلامى نسبة إلى الأحداث المؤثرة فى المجتمعات الإسلامية.
- إعادة النظر فى تقيم العصر العباسى إلى أول وثانى بناءً على معايير حضارية وسياسية، إضافة عهد المتوكل على الله إلى العصر العباسى الأول، واعتماد سنة ٢٤٧هـ بداية للعصر العباسى الثانى بدلاً من سنة ٢٣٢هـ.

الهوامش

(١) أحمد الحفناوي: الحضارة الإسلامية فى ظل الخلافة العباسية، الجهاز المركزى للكتب الجامعية، المنصورة، ط١، ١٩٧٩م، ص٣٩؛ حسن أحمد محمود: العالم الإسلامى فى العصر العباسى، ص٨٢؛ حسين محمد سليمان: الدولة الإسلامية فى العصر العباسى، دار عالم الكتب، الرياض، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م، ص٢١؛ شاكر مصطفى: دولة بنى العباس جـ١، ص٤؛ نادية صقر: السلم فى العلاقات العباسية البيزنطية فى العصر العباسي الأول، المكتبة الفيصلية، مكة المكرمة، ط١، ١٤٠٦هـ / ١٩٨٥م، ص٢٥.

(٢) إبراهيم بن محمد التيمي: قاضى البصرة، أحد علماء الحديث، وإن ضعَّفه بعضهم، لم أقف له على تاريخ وفاة، الطبرانى: المعجم الأوسط، تحقيق: طارق بن عوض الله بن محمد، عبد المحسن بن إبراهيم الحسينى، دار الحرمين، القاهرة، ١٤١٥هـ/ ١٩٩٤م، جـ٤، ص١٣٠؛ ابن الجوزى: العلل المتناهية، تحقيق: خليل أنيس، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، جـ١، ص٢٩٧.

(٣) ابن الجوزى: مناقب الإمام أحمد، ص٣١٢، ٣١٣؛ مرعى بن يوسف: تنوير بصائر المقلدين فى مناقب الأئمة المجتهدين، ص١٢٣.

(٤) ابن وادران: تاريخ العباسيين، تحقيق: المنجى الكعبى، دار الغرب الإسلامى، بيروت، ط١، ١٤١٣هـ/ ١٩٩٣م، ص٥٧١.

(٥) الذهبى: سير أعلام النبلاء، ج١٢، ص٣٢؛ السيوطى: تاريخ الخلفاء، ص٣٩٨.

(٦) يوسف العش: تاريخ عصر الخلافة العباسية، ص١٠٥.

(٧) يقول الذهبى: انحرفت الأتراك عن المتوكل لمصادرته وصيفاً وبُغا حتى اغتالوه، سير أعلام النبلاء، جـ١٢، ص٣٨.

(٨) هى فى الأصل: سُرَّ من رأى بناها المعتصم لتكون مقراً لجنده الأتراك بعد أن عثوا فى بغداد فساداً، وشكا منهم أهلها للمعتصم، وتقع بين بغداد وتكريت شرقى نهر دجلة، ياقوت: معجم البلدان، جـ٣، ص٩٥.

(٩) عز على أهل العراق أن تنتقل عاصمة الخلافة عنهم، إلى الشام، فتلطف شاعرهم يزيد بن محمد المهبلى لدى المتوكل لثنيه عن الانتقال إلى دمشق قائلاً:

أظن الشام يشمت بالعراق ... إذ عزم الإمام على انطلاق

فإن تدع العراق وساكنيه ... فقد تبكى المليحة بالطلاق

(١٠) اليعقوبى: تاريخ اليعقوبى، دار صادر، بيروت، (د.ت)، جـ٢، ص٤٩٢؛ الذهبى: سير أعلام النبلاء، جـ١٢، ص٣٨.

(١١) ومن نتائج دراسة أجراها أحمد سعود أحمد الحسن، خلص إلى أن تحول منصب الخلافة من الهيبة والقوة إلى الضعف والإضمحلال، تم بصورة سريعة، وليس تدريجياً حيث كان منصب الخليفة العباسى منذ نشأة الدولة العباسية (١٣٢ هـ / ٨٤٨م)، وحتى مقتل المتوكل سنة (٢٤٧هـ / ٨٦١م)، يتميز بالقوة، وأن الخليفة هو الشخص المباشر المتصرف فى إدارة شئون الخلافة، دور العامة فى الأحداث السياسية فى العصر العباسى من (٢٤٧هـ / ٨٦١م، إلى ٦٥٦هـ / ١٢٥٨م)، بحث منشور فى مجلة كلية الآداب، جامعة المنصورة، العدد ٢٢، يناير سنة ١٩٩٨م.

(١٢) يقول صابر محمد دياب: والحق أن تاريخ وفاة الخليفة الواثق بن المعتصم (٢٣٢هـ/ ٨٤٧م)، هو البداية الحقيقية لتدخل النفوذ التركى، وتغلغله فى شئون الدولة، فالواثق لم يعهد بعده بولاية

الآمر، ما دفع الترك لتجاوز ابنه وتولية أخيه المتوكل على الله الذى مات مقتولاً بأيدى الأتراك أنفسهم، (٢٤٧هـ / ٨٦١م)، الخلافة ونظم الحكم فى الدولة الإسلامية، دار الأنصار، القاهرة، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م، ص٦٨.

(١٣) ابن قيم الجوزية: أحكام أهل الذمة، تحقيق: صبحى الصالح، دار العلم للملايين، بيروت، ط٤، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م، جـ١، ص ١٦٧، ١٦٨.

(١٤) المصدر نفسه: ص ١٦٨، ١٦٩.

(١٥) ابن قيم الجوزية: أحكام أهل الذمة، ج١، ص١٧٩، ١٧١.

(١٦) الخلال: أحكام أهل الملل، تحقيق: سيد كسروى حسن، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٤١٤/١٩٩٤م، ص٥١، ٥٤.

(١٧) ابن قيم الجوزية: أحكام أهل الذمة، جـ١ ص١٧١، ١٨٧.

(١٨) سلمة بن سعيد النصرانى: أحد كُتَّاب المتوكل، كان يختان الأموال العامة، ويعبث بها، ولم يكتف بذلك، بل حاول الإيقاع بين الخليفة وبين المخلصين من أعوانه ليخلو له المجال، فيستحوذ على الخليفة، إلا أن الخليفة تنبه لما يريد فعزله وصادر أمواله، الطبرى: تاريخ الأمم والملوك، جـ ٥، ص٣٥٨.

(١٩) ابن قيم الجوزية: أحكام أهل الذمة، جـ ١، ص ١٧١، ١٧٢.

(٢٠) المصدر نفسه: ص ١٧٢، ١٧٤.

(٢١) ابن قيم الجوزية: أحكام أهل الذمة، جـ ٢، ص١٨٣، ٧٣٥، ٧٣٦، ٧٤١، ٧٤٢؛ الذهبى: سير أعلام النبلاء، جـ١٢، ص٣٤؛ السيوطى: تاريخ الخلفاء، ص٣٩٢.

(٢٢) المصدر السابق: ص ص٧٦٠، ٧٦١.

(٢٣) يقول «أرنولد» فى كتابه الدعوة إلى الإسلام: لكن حال المسيحيين لم تكن قائمة على هذا التسامح الذى كان فى خلفاء صدر الإسلام، فقد كانت تفرض أحياناً فى سبيل خدمة المؤمنين المخلصين بعض الحالات التى تضايق الأهالى من غير المسلمين (أو أهل الذمة) بحجة ضمان المزايا الاجتماعية السامية للمؤمنين، وقد قام بعض الخلفاء بمحاولات غير مجدية لإقصائهم عن الوظائف العامة، فأصدر المنصور (١٣٦ – ١٥٨هـ / ٧٥٤ – ٧٧٥م) والمتوكل (٢٣٢ – ٢٤٧هـ/ ٨٤٧ – ٨٦١م) مراسيم بهذا الصدد، أرنولد: الدعوة إلى الإسلام، ترجمة: حسن إبراهيم حسن وآخرين، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ص٧٠؛ انظر كذلك أحمد أمين: ضحى الإسلام، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، (د.ت)، جـ ٢، ص٤٨.

(٢٤) آل عمران: الآية ١١٧.

(٢٥) نَابُلُسُ: مدينة مشهورة بأرض فلسطين، بين جبلين، وفيرة المياه بينهما وبين القدس عشرة فراسخ، وبظاهر نابليس جبل ذُكِرَ أن آدم عليه السلام سجد فيه، وذهب البعض فى تفسير اسمها إلى أنها كانت فى الأساس واد فيه حية عظيمة تسمى لُس، متغلبة على الوادى، فاحتالوا عليها حتى قتلوها، ونزعوا نابها، فسمى المكان بنابلس أى ناب لس، ياقوت: معجم البلدن، جـ ٥، ص٢٨٨.

(٢٦) البلاذرى: فتوحَ البلدان، تقحيق: عبد الله أنيس الطباع وعمر الطباع، مؤسسة المعارف، بيروت، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، ص٢١٦.

(٢٧) الذهبى: سير أعلام النبلاء، جـ ١٢، ص ٣٥، ٣٦.

(٢٨) واجه المتوكل البدع التى ظهرت فى عهده، مثل التبرك بالقبور والأشجار، وسب الصحابة، وغيرها، من ذلك تبرُّك بعض أهل قزوين بشجرة بجوار مسجد الربيع بن خثيم، واجتماع بعض

الرافضة على سب الصحابة، البلاذرى: فتوح البلدان، ص٤٥١؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، جـ ١، ص٣٥١.

(٢٩) ابن الجوزى: مناقب الإمام أحمد، ص٣١٩، ٣٢٢؛ الذهبى: سير أعلام النبلاء: جـ ١٢، ص٣٦.

(٣٠) السيوطى: تاريخ الخلفاء، ص٣٩٥.

(٣١) ابن الجوزى: مناقب الإمام أحمد، ص٣٣٠.

(٣٢) على بن إسماعيل بن أبى بشر – إسحاق – بن سالم بن إسماعيل، ينتهى نسبه إلى أبى موسى الأشعرى، له مصنفات كثيرة فى الرد على الملحدة والمعتزلة والرافضة والجهمية، وهو بصرى سكن بغداد وتوفى بها سنة (٣٣٢هـ / ٩٤٤م)، الخطيب: تاريخ بغداد، جـ ١١، ص٣٤٦، ٣٤٧.

(٣٣) ابن الجوزى: مناقب الإمام أحمد، ص٣١٣، ٣١٤.

(٣٤) البحترى: اسمه الوليد بن عبيد بن يحيى بن عبيد الطائى البحترى المنبجى، يكنى بأبى عُبادة شاعر عصره، مدح الخلفاء والوزراء، وقد أثنى على شعره معاصروه من الشعراء أمثال أبى تمام بمنبج توفى سنة (٢٨٣هـ / ٨٦٩م)، الذهبى: سير أعلام النبلاء، جـ ١٣، ص٤٨٦، ٤٨٧.

(٣٥) السيوطى: تاريخ الخلفاء، ص٣٩٩.

(٣٦) تاريخ اليعقوبى: جـ ٢، ص ص ٤٨٤، ٤٨٥.

(٣٧) خليفة بن خياط العصفرى: يكنى بأبى عمرو، من تابعى التابعين فى البصرة، أحد علماء الطبقات والتاريخ، ومع ذلك فقد اهتم بالحديث فرواه عن عدد من العلماء، أهم كتبه تاريخ خليفة بن خياط والطبقات، توفى سنة ٢٤٠هـ/ ٨٥٧م، الذهبى: سير أعلام النبلاء، جـ ١١، ص ص ٤٧٣، ٤٧٤.

(٣٨) الذهبى: سير أعلام النبلاء، جـ ١٢، ص٣١.

(٣٩) ابن الجوزى: مناقب الإمام أحمد بن حنبل، ص٣١٢.

(٤٠) الذهبى: سير أعلام النبلاء، جـ ١٢، ص٣٤.

(٤١) الطبرى: تاريخ الأمم والملوك، جـ٧، ص ص ٣٢٤، ٣٣١؛ ٣٣٢، ابن شداد: الأعلاق الخطيرة، ص ص ٢٦٥، ٢٦٦.

(٤٢) بارة: مدينة بالمغرب على شاطئ البحر، فى أرض تعرف بالأرض الكبيرة بينها وبين برقة مسيرة خمسة عشر يوماً، كان أهلها نصارى من غير الروم، غزاها جبلة مولى الأغلب فلم يقدر عليها، ثم غزاها خلفون البربرى، ففتحها أول خلافة المتوكل على الله، البلاذرى: فتوح البلدان، ص٣٢٨.

(٤٣) البلاذرى: فتوح البلدان، ص٣٢٨.

(٤٤) البُجة: نسبة إلى البجاوة، وهم أمم عظيمة تقطن النوبة، وهى تفصل بين العرب والحبش، ومدينتهم يقال لها هجر، يأتيها المسلمون للتجارة، وأهل البجة ليس لهم بيوت، إنما ينزلون خياماً من الجلود، ذكر اليعقوبى أنهم – لا دين لهم، يأكلون الذرة، وينتفون لحاهم، ويحاربون على الجمال، اليعقوبى: كتاب البلدان، دار إحياء التراث العربى، بيروت، ط، ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م، ص٩٥؛ ياقوت: معجم البلدان، جـ ١، ص٤٠٣.

(٤٥) البلاذرى: فتوح البلدان، ص ص ٣٣٤، ٣٣٥.

(٤٦) الذهبى: سير أعلام النبلاء، جـ ١٢، ص٣٤.

(٤٧) البلاذرى: فتوح البلدان، ص٢٢٣.

(٤٨) العواصم: من عَصَمَ يعصم عصماً، فهى مفرد عاصمة بمعنى مانعة، والعواصم التى نحن بصدد

الحديث عنها، بلاد بين المسلمين والروم قصبتها أنطاكية، وهى مدن حصينة، سميت بذلك لأنها تعصم المسلمين من عدوهم، ابن منظور: لسان العرب، جـ ٤، ص ٢٩٧٩.

(٤٩) البلاذرى: فتوح البلدان، ص ص ٢٣٣، ٤٦٢، الثغور: جمع ثغر وهو فى اللغة كل فرجة فى جبل أو بطن وادٍ أو طريق مسلوك، ويوصف به الفم، وبالذات ما تقدم من الأسنان، ويقصد به هنا أطراف البلدان التى يخشى عليها خطر الغزو، براً وبحراً، فهو على ذلك ما يلى دار الحرب، ويفصلها عن بلاد المسلمين، ابن منظور: لسان العرب، ج١، ص ٤٨٦؛ أحمد عطية: القاموس الإسلامى، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط١، ١٣٩٠ هـ/ ١٩٧٠م، جـ ١، ص٥٣٨.

(٥٠) الحريرى: مقدمات البناء السياسى للمغرب العربى «الدولة الرستمية»، مكتبة الشباب، القاهرة، ط ١، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م، ص ص ١٩١، ٢٠٠.

(٥١) انظر حسن على حسن: تاريخ المغرب العربى (عصر الولاة)، مكتبة الشباب، القاهرة، ط١، د. ت، ص١٧٧.

(٥٢) انظر حسن على حسن: تاريخ المغرب العربى (عصر الولاة)، ص ١٩٤، ١٩٥، ١٩٦.

قائمة المصادر والمراجع:

أولاً: القرآن الكريم

ثانياً: المخطوطات

مرعى بن يوسف: (بن أبى بكر بن أحمد الكرمى الحنبلى ت ١٠٣٣هـ / ١٦٢٣م).
- تنوير بصائر المقلدين فى مناقب الأئمة المجتهدين، مخطوط بدار الكتب المصرية، برقم (٢٣٩٨)، ميكروفيلم (٣٥٧٨٢)، تاريخ طلعت.

ثالثاً: المصادر المطبوعة:

البلاذرى: (أحمد بن يحيى بن جابر ت ٢٧٩ هـ / ٨٩٢م).
- فتوح البلدان، تحقيق عبد الله أنيس الطباع، عمر أنيس الطباع، مؤسسة المعارف، ، بيروت، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.

ابن الجوزى: (أبو الفرج جمال الدين عبد الرحمن البغدادى ت ٥٩٧هـ / ١٢٠١م).
- مناقب الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق سعد كريم الفقى، دار ابن خلدون، الإسكندرية، د.ت.
- مناقب الإمام أحمد بن حنبل، مطبعة السعادة، القاهرة، ط١، د.ت.

الخطيب: (أبو بكر أحمد بن على البغدادى ت ٤٦٣ هـ/ ١٠٧١م).
- تاريخ بغداد، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.

الخلال: (أبو بكر أحمد بن محمد ت ٣١١ هـ /٩٢٣م).
- أحكام أهل الملل (من الجامع لمسائل الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق سيد كسروى حسن، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م).
- الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، تحقيق عبد القادر أحمد عطا، دار الاعتصام، القاهرة، ١٣٩٤هـ / ١٩٧٤م.

ابن خلكان: (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبى بكر ت ٦٨١هـ / ١٢٨٢م).
- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، د. ت.

الذهبى: (أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان ت ٧٤٨ هـ / ١٣٤٧م).
- سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٢، ١٤٠٢/ ١٩٨٢م.

السيوطى: (جلال الدين عبد الرحمن بن كمال الدين ٩١١ هـ /١٥٠٥م).

ـ تاريخ الخلفاء، تحقيق قاسم الشماخى الرفاعى، محمد عثمان، دار القلم، بيروت، ط١، ١٩٨٦م.
ابن شداد: (عز الدين محمد بن على بن إبراهيم ت ٦٨٤هـ / ١٢٨٥م).
ـ الأعلاق الخطيرة فى ذكر أمراء الشام والجزيرة، تحقيق يحيى زكريا عبارة، وزارة الثقافة، دمشق، ١٤١١هـ/ ١٩٩١م.
الطبرى: (محمد بن جرير ت ٣١٠/ ٩٢٢م).
– تاريخ الأمم والملوك، تحقيق نخبة من العلماء الأجلاء، مكتبة الاستقامة، القاهرة، ١٣٥٨هـ / ١٩٣٩م.
– تاريخ الأمم والملوك، دار الكتب العلمية، بيروت، ط، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م.
ابن قيم الجوزية: (أبو عبد الله شمس الدين محمد بن أبى بكر ت ٧٥١ هـ / ١٣٥٠م).
– أحكام أهل الذمة، تحقيق صبحى الصالح، دار العلم للملايين، بيروت، ١٤١٤هـ / ١٩٩٤م.
ـ أحكام أهل الذمة، تحقيق عبد الرؤوف سعد، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١.
ابن وادران: (حسين بن محمد كان حياً سنة ١١٧٢هـ / ١٧٥٩م).
– تاريخ العباسيين، تحقيق المنجى الكعبى، دار الغرب الإسلامى، بيروت، ط١، ١٤١٣ هـ/ ١٩٩٣م.
ياقوت. (شهاب الدين أبو عبد الله الحموى ت ٦٢٦هـ /١٢٢٩م).
– معجم البلدان، تحقيق فريد عبد العزيز الجندى، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠١هـ /١٩٩٠.
– اليعقوبى: (أحمد بن يعقوب بن جعفر بن وهب بن واضح ت ٢٨٤هـ/ ٨٩٧م).
– تاريخ اليعقوبى، دار صادر، بيروت، د.ت.
– كتاب البلدان، دار إحياء التراث العربى، بيروت، ط١، ١٤٠٨هـ /١٩٨٨.

رابعاً: المراجع الحديثة:

– أحمد أمين: ضحى الإسلام، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، د.ت.
الحريرى. محمد عيسى: مقدمات البناء السياسى للمغرب العربى (الدولة الرستمية)، مكتبة الشباب، القاهرة، ط ١٣٩٩، ١هـ/ ١٩٧٩م.
– حسن أحمد محمود: العالم الإسلامى فى العصر العباسى، مطبعة الإستقلال الكبرى، القاهرة، د.ت.
– حسن على حسن: تاريخ المغرب العربى (عصر الولاة)، مكتبة الشباب، القاهرة، ط١، د.ت.
– حسين محمد سليمان: الدولة الإسلامية فى العصر العباسى، دار عالم

الكتب، الرياض، ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م.
– شاكر مصطفى: دولة بنى العباس، وكالة المطبوعات، الكويت ، ط١، ١٣٩٣هـ/ ١٩٧٣م.
– صابر محمد دياب: الخلافة ونظم الحكم فى الدولة الإسلامية، دار الأنصار، ١٤٠٠ هـ / ١٩٨٠م.
– ولاية المظالم ومجالسها، مطبعة الأمانة، القاهرة، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٤م.
العش. يوسف: تاريخ عصر الدولة العباسية، دار الفكر المعاصر، بيروت، ١٤١٦/١٩٩٨م.
– نادية حسين صقر: السلم فى العلاقات العباسية البيزنطية فى العصر العباسى الأول، المكتبة الفيصلية مكة المكرمة، ط١، ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٥م.

خامساً: المراجع المعرّبة: الأجنبية:

– أرنولد، سير. توماس.
– الدعوة إلى الإسلام، ترجمة حسن إبراهيم حسن، عبد المجيد عابدين إسماعيل النحراوى، مكتبة النهضة، المصرية، القاهر، د.ت.

سادساً: بحوث منشورة فى دوريات:

– أحمد سعد أحمد الحسن
– دور العامة فى الأحداث السياسية فى العصر العباسى من بعد سنة ٢٤٧هـ/ ٨٦١م، بحث منشور فى مجلة كلية الآداب، جامعة المنصورة، العدد: ٢٢، رمضان ١٤١٨/ يناير ١٩٩٨م.